تجاربُ الأنبياء(ع) في تحقيق العدالة الاجتماعية نبي اللّه شعيب (ع) أنموذجاً

◆ ش. د. لبنان حسين الزين[1]

■ **خلاصة**

تتناول هذه الدراسة موضوع «العدالة الاجتماعيّة»، بوصفها أحد مجالات اهتمام الأنبياء(ع) في دعوتهم لأقوامهم ومجتمعاتهم، وما لها من دور وتأثير بالغ في صيانة المجتمع الإنساني ورُقّيه وتكامله. وقد اعتنى الإسلام بتطبيق العدالة الاجتماعيّة، بوصفها قيمة حقيقية في المجتمعات الإنسانية، لا غنى لها عنه في انتظام أمرها. فصلاح المجتمع لا يقوم إلا بالعدل، أي أنْ يُعامل كلّ فرد من أفراد المجتمع بما يستحقّه، في إطار معادلة الحقوق والواجبات، وأن يُوضع في موضعه. وقد أناط الإسلام بالأنبياء (عليهم السلام)، مهمّة الدعوة إلى العدالة الاجتماعيّة وتطبيقها، تأسيسًا على تعاليم الدين الإلهيّ، وإزالة لكلّ العوائق التي تحول دون إرسائها في المجتمع الإنساني. وهذا ما عمل على تحقيقه الأنبياء (ع) في مجتمعاتهم، ومنهم نبي الله شعيب(ع)، في قومه مدين، الذين عرّضوا مجتمعهم للهلاك والعذاب، بفعل تفريطهم في إقامة العدالة الاجتماعيّة والاقتصادية، والانحراف عن عقيدة التوحيد، وذلك من خلال مواجهته للطبقة الاقتصاديّة المُحتكرة للثروة والطاغية من قومه، التي رفضت الانصياع للتعاليم الإلهية، وأصرت على الكفر والغش في الكيل والميزان والإفساد في الأرض.

الكلمات المفتاحية:

العدالة الاجتماعيّة - نبي الله شعيب – مدين- العقيدة والعمل - الإفساد في الأرض- بخس الكيل والميزان- الأمن الاقتصادي.

1 - أستاذ حوزوي وجامعي، وباحث في الدراسات الإسلاميّة والقرآنيّة – لبنان.

مقدّمة

خلق الله تعالى الإنسان، وقدّر خلقه وسوّاه تسوية تهديه في سيره الوجودي: ﴿**الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَى**﴾[الأعلى: 2-3]، وممّا هداه إليه: ارتباطه بالعالم، حيث يفعل فيه وينفعل به، ويتصرّف في الأشياء والموجودات المُسخرة له، بما يمكّنه من حفظ حياته ووجوده، ويحقق أهداف خلقه واستخلافه في الأرض:﴿**وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾[الجاثية:13]. فالإنسان يجري في نشأته الدنيويّة على استخدام غيره، لغرض الانتفاع والحفاظ على حياته والوصول إلى مقصده الكمالي، لكنّه مدنيّ بالطبع لا بالفطرة، يندفع نحو الاجتماع اضطرارًا، لعدم قدرته على استيفاء منافعه كلّها بذاته، فيضطر إلى أن يتصالح ويتعامل مع غيره، لأجل تحقيق منافعه. وهذا ما يُؤدي إلى استقرار الاجتماع البشري، خصوصا إذا كان التعامل والتعاطي إيجابيّا مراعيًّا للحقوق والواجبات، وتبادل المنافع، فعندها يتحقّق العدل الاجتماعيّ، بحيث ينال كلّ ذي حقّ حقّه.

لكنّ محدوديّة النشأة الدنيويّة من جهة، واختلاف أفراد النوع الإنساني في خصوصياتهم الخَلقيّة والخُلقيّة وعاداتهم وبيئاتهم الحياتيّة، من جهة ثانية، وسعي الإنسان إلى تحقيق منافعه إلى أقصى حدّ ممكن، ولو باستخدام غيره بالمصالحة أو الغلبة، من جهة ثالثة، ينتج عنه حدوث الاختلاف والتنازع بين أفراد المجتمع الإنسانيّ! لذلك، كلّما قوي إنسان على آخر واسترسل في تحقيق رغباته على حساب الآخرين، ضعف الاجتماع التعاونيّ بينهم، وساد الطغيان والظلم على حساب العدل الاجتماعيّ، ولذلك يقول عز من قائل: ﴿**إنّ الإنسان ليطغى أنْ رآه استغنى**﴾[العلق: 7].

و هذا ما يستدعي حلّ هذه الاختلافات، وتنظيم استفادة الإنسان بمنافعه في هذه النشأة، دون الإضرار بغيره، من خلال تحكيم تعاليم الدين وإرشاداته، التي صدح بها الأنبياء والرسل الإلهيّين،

ليمكّنوا الإنسان، أفرادًا وجماعات من أخذ فُرصهم في التكامل والرقي، ولن يتمّ ذلك، إلا بتحقيق العدالة الاجتماعيّة، التي كانت هدفًا ومهمّة من أهم المهمّات التي أناطها الوحي بالأنبياء والمرسلين(ع): ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ**﴾[الحديد: 25].

من هنا، تأتي هذه الدراسة، لتؤكّد على أهميّة العدالة الاجتماعيّة، ودورها في صيانة المجتمع الإنساني، ورقّيه وتكامله، وأخذ أفراده فرصهم ونصيبهم من التكامل والمنافع المادية، بالتساوي ودون إجحاف، وهو ما سعى إليه الأنبياء والمرسلون(ع)، وعملوا على تحقيقه في مجتمعاتهم، ومنهم نبي الله شعيب(ع) مع قومه أهل «مدين» الذين عرّضوا مجتمعهم للهلاك والعذاب الإلهي، بسبب كفرهم وعصيانهم لنبيهم، وإصرارهم على الظلم والغش في الكيل والميزان، ورفضهم إقامة العدالة الاجتماعيّة، والانحراف عن عقيدة التوحيد.

أولًا: دور الدين والأنبياء(ع) في تحقيق العدالة الاجتماعيّة كما ظهر في القرآن الكريم

لمّا كان الاختلاف بين أفراد المجتمع الإنساني واقع لا محالة: (وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا)[يونس: 19]، (ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم)[هود: 119]، وهو اختلاف تقتضيه طبيعة الخِلقة والتكوين، وتستلزمه طبيعة النشأة الدنيويّة، بما هي دار امتحان واختبار، وتفتّح استعدادات الإنسان الكماليّة: ﴿**الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ**﴾[الملك: 2]، ولمّا كان هذا الاختلاف يؤدي إلى اختلال نظام العدالة الاجتماعيّ، باتت الحاجة ماسّة وضروريّة لنظام وقانون يرفع آثار هذا الاختلاف التكوينيّ، وليس بمقدور الإنسان وضع قانون شامل وعادل كهذا، لقصور علم الإنسان بما يرفع الاختلاف، وعدم قدرته على التجرّد عن إقحام منافعه وأنانيّته، وتغليبه لمصلحته الشخصية، في وضع القوانين! فاستدعى ذلك، نزول الدين عبر إرسال وبعث الأنبياء والرسل(ع)، بوصفه تعاليم وتشريعات وقوانين، يُوجب عمل الناس بها، ارتفاع الاختلاف فيما بينهم، ومن ثمّ تحقيق العدالة الاجتماعيّة في أبهى وأرقى صورها.

وبالتّالي، فالدين بقوانينه وتشريعاته وأحكامه وإرشاداته، هو الوحيد القادر على رفع الاختلاف والتنازع الحاصل بين الناس، في ما لو التزموا به، اعتقادًا وعملاً. يقول عز من

قائل: ﴿**كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾[البقرة: 213]. أما بقاء الاختلاف والصراع والتنازع بين الناس بعد نزول الدين فيرجع إلى (البغي بينهم)، أي تجاوز الحق واعتداء بعضهم على بعض، حيث «يخبرنا - سبحانه وتعالى- أنّ الاختلاف في المعاش وأمور الحياة، إنّما رُفع أوّل ما رُفع بالدين، فلو كانت هناك قوانين غير دينية فهي مأخوذة بالتقليد من الدين. ثمّ إنّه تعالى يخبرنا أنّ الاختلاف نشأ بين النوع في نفس الدين، وإنّما أوجده حَمَلة الدين ممّن أوتي الكتاب المبين: من العلماء بكتاب الله، بغيًا بينهم وظلمًا وعتوًّا، قال تعالى: ﴿**شرع لكم من الدين ما وصى به نوحًا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه (...) وما تفرّقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيًا بينهم ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمّى لقضى بينهم**﴾[الشورى: 14]، وقال تعالى: ﴿**وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم فيما فيه يختلفون**﴾[يونس: 19]، والكلمة المُشار إليها في الآيتين هي قوله تعالى: ﴿**ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين**﴾[الأعراف: 24]. فالاختلاف في الدين يستند إلى البغي والظلم دون الفطرة، فإنّ الدين فطري، وما كان كذلك، لا تضلّ فيه الخلقة، ولا يتبدّل فيه حكمها، كما قال تعالى: ﴿**فأقم وجهك للدين حنيفًا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم**﴾[الروم: 30][1].

وقد اعتنى الإسلام بتطبيق العدالة الاجتماعيّة، بوصفها قيمة حقيقية في المجتمعات الإنسانية، وجزءًا جوهريًّا يُستند إليه في تركيبها وتأليفها، ولا غنى لها عنه في انتظام أمرها، فصلاح المجتمع وانتظام أمره لا يقوم إلا بالعدل، وهو أن يعامل كلّ فرد من أفراد المجتمع بما يستحقّه، ويُوضع في موضعه الذي ينبغي أن يُوضع فيه: يقول عز وجل: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾[النحل: 90]، حيث «ابتدأ سبحانه بهذه الأحكام الثلاثة، التي هي بالترتيب أهمّ ما يقوم به صلب المجتمع الإنساني،

1- انظر: محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج2، ص122.

لما أنّ صلاح المجتمع العامّ أهمّ ما يبتغيه الإسلام في تعاليمه المُصلِحة، فإنّ أهمّ الأشياء عند الإنسان في نظر الطبيعة، وإن كان هو نفسه الفردية، لكنّ سعادة الشخص مبنية على صلاح الظرف الاجتماعي الذي يعيش هو فيه، وما أصعب أن يفلح فرد في مجتمع فاسد أحاط به الشقاء من كلّ جانب. ولذلك، اهتمّ بإصلاح المجتمع اهتمامًا لا يُعادله فيه غيره، وبذل الجهد البالغ في جعل الدساتير والتعاليم الدينية، حتى العبادات، من الصلاة والحج والصوم اجتماعية، ما أمكن فيها ذلك، كلّ ذلك ليستصلح الإنسان في نفسه ومن جهة ظرف حياته..

إنّ حقيقة العدل هي إقامة المساواة والموازنة بين الأمور، بأنْ يُعطى كلّ فرد حقّه، وما ينبغي أن يُعطى، فيتساوى في أنّ كلاً منها واقع موضعه الذي يستحقّه، فالعدل في الاعتقاد، أنْ يؤمن بما هو الحقّ والعدل في فعل الإنسان في نفسه، وأن يفعل ما فيه سعادته، ويتحرّز ممّا فيه شقاؤه، باتّباع هوى النفس. والعدل في الناس وبينهم، أن يوضع كلّ موضعه الذي يستحقّه في العقل أو في الشرع أو في العُرف، فيُثاب المُحسن بإحسانه، ويُعاقب المُسيء على إساءته، ويُنتصف للمظلوم من الظالم، ولا يبعَّض في إقامة القانون، ولا يُستثنى (...) فالعدل، وإنْ كان منقسمًا إلى عدل الإنسان في نفسه، وإلى عدله بالنسبة إلى غيره، وهما العدل الفردي والعدل الاجتماعي، واللفظ مطلق، لكنّ ظاهر السياق أنّ المراد به في الآية العدل الاجتماعي، وهو أن يُعامل كلّ من أفراد المجتمع بما يستحقّه، ويُوضع في موضعه الذي ينبغي أن يُوضع فيه»[1].

من هنا، أكّد الإسلام على ضرورة قيام أفراد المجتمع بالعدل والقسط بينهم أتمّ قيام، وملازمة الحقّ والصدق في جميع الأمور، ومنها أداء الشهادة والقيام بها، من أجل انتظام أمر المجتمع، ومنع وقوع الظلم والجور فيه، وذلك في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا**﴾[النساء: 135].

كما أناط الإسلام بالأنبياء والرسل(ع) مهمّة الدعوة إلى العدالة الاجتماعيّة وتطبيقها في مجتمعاتهم، تأسيسًا على تعاليم الدين الإلهيّ، وإزالة كلّ الموانع والعوائق التي تحول دون إرسائها في المجتمع الإنساني: (**ليقوم الناس بالقسط**)[الحديد: 25].

1- محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج12، ص331.

ثانيًا: قوم النبي شعيب(ع) والدعوة إلى العدل في المعاملات الاقتصادية (العدل في الكيل والميزان)

1. من هو النبي شعيب (ع)؟ ومن هم قومه؟

قيل: هو شعيب، بن توبة، بن مدين، بن ابراهيم(ع). وقيل: هو شعيب، بن ميكيل (ابن بنت النبي لوط(ع))، بن يشحب، بن مدين، بن ابراهيم(ع)[1].. وهو من الأنبياء العرب[2].

وقد ورد ذكْره في القرآن الكريم في مواضع عدّة، هي:

● قوله تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ * وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ * قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ * وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ * فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ * الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ * فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾[الأعراف: 85-93].

● قوله تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ * وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ * قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ

1- الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج4، ص302-303.

2- الصدوق، الخصال، أبواب العشرين وما فوقه في حبّ أهل البيت(ع)، ح13، ص524، والمفيد، الاختصاص، ص264.

أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ * وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ * وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ * قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ * وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ * وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ * كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾[هود: 84-95].

● قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ * وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ * وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ * قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ * وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ * فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[الشعراء: 176-189].

● قوله تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾[العنكبوت: 36-37].

لقد أرسل الله تعالى نبيّه شعيبًا(ع) إلى قومه مدين: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾[الأعراف:85]، وعدّ شعيبًا(ع) أخًا لهم لانتسابه النّسبي إليهم، فالأخ بمعنى « المُشارك آخر في الولادة من الطرفين، أو من أحدهما أو من الرضاع. ويُستعار في كلّ مشارك لغيره في القبيلة، أو في الدّين، أو في صنعة، أو في معاملة أو في مودّة»[1].

1- الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، مادّة «أخ»، ص68.

وفي تفسير العياشي، عن يحيى بن المساور الهمداني، عن أبيه قال: «جاء رجل من أهل الشام إلى علي بن الحسين عليه السلام، فقال: أنت علي بن الحسين؟ قال: نعم، قال أبوك الذي قتل المؤمنين؟! فبكى علي بن الحسين (ع)، ثمّ مسح عينيه، فقال: ويلك كيف قطعت على أبي أنّه قتل المؤمنين؟ قال: قوله: إخواننا قد بغوا علينا، فقاتلناهم على بغيهم، فقال: ويلك أما تقرأ القرآن؟ قال: بلى، قال: فقد قال الله: (وإلى مدين أخاهم شعيبًا)، (وإلى ثمود أخاهم صالحًا)، فكانوا إخوانهم في دينهم أو في عشيرتهم؟ قال له الرجل: لا بل في عشيرتهم، قال: فهؤلاء إخوانهم في عشيرتهم، وليسوا إخوانهم في دينهم، قال: فرّجت عنّي فرّج الله عنك»[1].

وقيل في مدين: هم أصحاب الأيكة أنفسهم الذين ذكرهم الله تعالى بقوله: ﴿**كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ**﴾[الشعراء: 176-177]، والأيكة من الأيك، وهو الشجر الكثيف الملتفّ بعضه على بعض[2]. وقيل: إنّ الله تعالى أرسله إليهم بعد هلاك أهل مدين[3].

2. بيئة قوم النبي شعيب(ع):

كانت مدين في أطراف الشام ممّا يلي الحجاز، على مقربة من بحيرة قوم لوط(ع) (ابن كثير، قصص الأنبياء، ج1، ص274-275) ؛ ويشهد بذلك تذكير النبي شعيب(ع) قومه بما حلّ بقوم لوط (ع): ﴿**وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ**﴾[هود: 89].

وأهلها من أبناء إسماعيل، كانوا يُتاجرون مع أهل مصر والشام. ويُطلق اليوم على مدينة «مدين» إسم «معان»، وأطلق البعض اسم «مدين» على الساكنين بين خليج العقبة وجبل سيناء. وورد في التوراة اسم «مديان» تسمية لبعض القبائل، من باب إطلاق الإسم على المدينة وأهلها، وهو أمر رائج[4].

وكان من أمر مدين أنّ الله تعالى أنعم عليهم، فكثّرهم وزادهم عُدّة وبارك في خيرات أرضهم:

1- العياشي، تفسير العياشي، ج2، ص20.
2- الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، مادّة «أيك»، ص98.
3- انظر: الآلوسي، تفسير روح المعاني، ج9، ص6.
4- الشبستري، أعلام القرآن، ص488، والشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج7، ص33.

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾[الأعراف: 86]، ولكنّهم استغرقوا في هذه النعم، ونسوا ذِكْر الله تعالى، وجحدوا أنعمه، وتورطوا في جريمة بَخس ونقص المكاييل والموازين في تعاملاتهم التجارية، والبيع والشراء، وعاثوا في الأرض فساداً: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ * وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[هود: 84-85]. فكان ذلك سببًا في انتشار الظلم الاجتماعي والاقتصادي بينهم، وبين من كانوا يُتاجرون معهم، وهذه الجرائم كانت سببًا في هلاكهم ونزول العذاب بهم، كما ذكر القرآن الكريم.

ثالثًا: السيرة الدعويّة والتبليغيّة للنبي شعيب(ع) وموقف قومه من دعوته

1. دعوة النبي شعيب (ع) لقومه

تحمّل النبي شعيب(ع) مسؤوليّة دعوة قومه إلى الله تعالى، وكان على شريعة النبي إبراهيم، فاجتهد في نصحهم قائلا: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[الأعراف:85]، و﴿بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾[هود: 86]، ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[هود: 88]. كما ودعاهم إلى التوحيد وعبادة الله تعالى خالقهم، وحده، وطاعته وملازمة تقواه والحذر من يوم الآخرة: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾[الأعراف: 85]، (فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾[العنكبوت:36]، ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ﴾[الشعراء:184)، كما حثّهم أيضًا، على الرجوع إلى الله تعالى بالاستغفار والتوبة: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾[هود: 90].

ثمّ حذّرهم من خطورة التعدّي على الحقوق الماليّة للناس، وعدم بخسهم أشياءهم، فهذا من الظلم الذي يُؤثر بشكل سلبي في التوازن الاجتماعي، ويُؤدي بالتالي، إلى اختلال الأمن الاجتماعي، ونشوب الاختلاف والتنازع بين أفراد المجتمع، وهذا من مظاهر الإفساد في الأرض، الأمر الذي يستدعي العذاب والعواقب الوخيمة: يقول نبي الله شعيب(ع) مخاطبًا قومه: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ

لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[الأعراف: 85]، ﴿وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ * وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[هود: 84-85]، وقوله: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ * وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ * وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[الشعراء:181-183].، وللزيادة في وعظهم وتحذيرهم من عواقب أفعالهم، ذكّرهم بمصير مَنْ كان قبلهم من الأمم، التي بطرت أنعم الله تعالى وجحدت بها، وعاثت في الأرض فساداً، فأحاط بها العذاب الأليم: ﴿وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾[الأعراف:86]، ﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾[هود: 89]. لقد حلّ بهذه الأقوام العذاب الأليم، ليس فقط لكُفرهم وعدم تصديقهم أنبياءهم، وإنما – كذلك - بسبب الجرائم الاجتماعية التي كانوا يقترفونها، وأنواع الظلم الذي تلبسوا به، وهذه إشارة إلى أنّ الظلم المُتعلق بالحقوق المالية والاقتصادية(بخس الناس أشياءهم) لا يقلّ جسامة وخطورة عن جرائم الاعتداء والقتل والشذوذ الجنسي وقطع الطريق مثلاً (جريمة قوم صالح الذين عقروا الناقة وجرائم قوم لوط).

2. موقف قوم النبي شعيب(ع) من دعوته

لقد آمن بالنبي شعيب(ع) طائفة من قومه، لكن طائفة أخرى من الملأ وكبار القوم والمتنفذين كفرت بدعوته وتصدّت لها بكل الطرق والوسائل: ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا...﴾[الأعراف:87]، كما سَخروا منه، وجادلوه بالباطل: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾[هود:87]، ووجّهوا له تهمًا باطلة، وواجهوه بدعاوى واهية، بمكر وخداع: ليصدّوا الناس عن دعوته قائلين: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾[الشعراء:187].

كما اتّهموه بالكذب: ﴿وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾[الشعراء:186]، وبالإصابة بالجنون بفعل السحر: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾[الشعراء: 185]، وبطلب الجاه والمال: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾[الشعراء: 180]، وأن ليس له عليهم من فضل: ﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾[الشعراء: 186].

3. مواجهة النبي شعيب (ع) للكفار من قومه

عَمِل النّبي شعيب(ع) على مواجهة كل هذه التّهم والدعاوى، بحكمة وبصيرة، مفنّداً إيّاها

بالبرُهان والدليل، فكيف يكون كاذباً وهو رسول أمين، مُرسَل إليهم من ربّهم؟!: ﴿**إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ**﴾[الشعراء:178]، وكيف يكون مجنوناً وهو قد أتاهم بما لا يتكلّم به إلا ذو عقل رشيد، وهم أنفسهم يشهدون له بذلك؟!: ﴿**إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ**﴾[هود:87]، وكيف يكون طالباً للجاه والمال، وهو لم يسألهم أجراً على دعوته، بل يؤمن أن رزقه على الله تعالى وحده؟!: (**وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾[الشعراء: 80]، وكيف يتعجّبون من كونه بشراً رسولاً وقد خلت الرسل من قبله، وقد جاءهم ببيّنة من ربّهم، وهي معجزة النبوّة؟!: ﴿**قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ**﴾[الأعراف:85]، ﴿**قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا**﴾[هود:88]. ولكنّهم مع ذلك ظلّوا مصرّين على معاندتهم ومكابرتهم: ﴿**قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا**﴾[هود: 91]، ﴿**وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ**﴾[الأعراف: 90]، وأخذوا بمضايقته ومن معه من المؤمنين وصدهم عن اتباع الحق وما يدعو إليه: ﴿**وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا**﴾[الأعراف:86]. بل هدّدوه بالقتل والتهجير، وإرغامه ومن آمن معه، بالعودة إلى الكفر وملّة آبائهم، ودينهم الوثني: ﴿**وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ**﴾[هود: 91]، ﴿**قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا**﴾[الأعراف:88].

لكنّ نبي الله شعيب(ع)، لم يكُن ليخافَ من تهديدهم، أو يتراجع بسبب كل هذه الضغوطات والتهديدات، بل كان موقفه قويًّا صلبًا وشامخًا، حيث تابع دعوته بالنصح لهم وتحذيرهم من عذاب الله الذي سيحلّ بهم، إنْ هم تمادوا في غيهم وكفرهم وإفسادهم: ﴿**قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ * قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ**﴾[الأعراف:88-89]، ﴿**وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ**﴾[الأعراف:87]، ﴿**قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ * وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ**﴾[هود: 92-93]. وبذلك أتمّ نبيّ الله شعيب(ع) الحجّة على

قومه، بالدعوة والتبليغ والنصيحة النُذُر: ﴿**فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ**﴾[الأعراف: 93].

4. نزول العذاب بقوم النبي شعيب(ع)

بعد أن تمّت الحجّة على قوم شعيب(ع) بالتبليغ والنُذُر، وبعد إصرارهم على الكفر والإفساد في الأرض، نزل بهم العقاب، حيث جمع الله تعالى لهم ألوان العذاب، فزلزل أرضهم، وأرسل عليهم صيحة أرجفتهم، وريحاً فيها نار ظلّلت ديارهم وأحاطت بهم، فخروّا على وجوههم صرعى، فأصبحوا جثثاً هامدة: يقول عز وجل: ﴿**وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ * كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ**﴾[هود: 94-95]، ﴿**فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ * الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ**﴾[الأعراف:91]، ﴿**فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ**﴾[الشعراء:189]. وهكذا شمل العذاب أهل العناد والمعصية منهم، وكذلك المداهنين لهم، ونجّى الله سبحانه النبي شعيب (ع) ومن آمن معه برحمة منه: ﴿**وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا**﴾[هود: 94].

وفي الروايات الشريفة، ما يؤكّد ما ذكره القرآن الكريم من أفعال قوم مدين، والعذاب الذي حلّ بهم، مع بعض التفاصيل، وخصوصًا ما يتعلّق بتورطهم في جريمة البخس والتطفيف في المكيال، وأنّ ذلك كان سببًا في نزول العذاب بهم، ومنها:

ما روي عن الإمام زين العابدين (ع) أنّه قال: «إنّ أوّل مَنْ عمل المكيال والميزان شعيب النبي(ع) عمله بيده، فكانوا يكيلون ويُوفون، ثمّ إنّهم بعد طفّفوا في المكيال وبخسوا في الميزان، (فأخذتهم الرجفة)، فعُذِّبوا بها، (فأصبحوا في ديارهم جاثمين)»[1].

ما روي عن الإمام الباقر(ع) أنّه قال: «أوحى الله عزّ وجلّ إلى شعيب النبي (عليه السلام): أنيّ معذّب من قومك مائة ألف، أربعين ألفًا من شرارهم، وستين ألفًا من خيارهم، فقال (عليه السلام): يا رب! هؤلاء الأشرار، فما بال الأخيار؟ فأوحى الله عزّ وجلّ إليه: داهنوا أهل المعاصي ولم يغضبوا لغضبي»[2].

1- الراوندي، قصص الأنبياء(ع)، حديث 153، ص145.

2- الكليني، الكافي، ج5، كتاب الجهاد، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ح1، ص56.

ما رُوي عن الإمام الصادق (ع) أنّه قال: « بعث الله شعيبًا إلى مدين، وهي قرية على طريق الشام، فلم يُؤمنوا به، وحكى الله قولهم: (قالوا يا شعيب أصلواتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا - إلى قوله - الحليم الرشيد)، قال: قالوا إنّك لأنت السفيه الجاهل، فكنّى الله عزّ وجلّ قولهم، فقال: (إنّك لأنت الحليم الرشيد)، وإنّما أهلكهم الله بنقص المكيال والميزان: (قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربيّ ورزقني منه رزقًا حسنًا وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيق إلا بالله عليه توكّلت وإليه أنيب)، ثمّ ذكّرهم وخوّفهم بما نزل بالأمم الماضية، فقال: (يا قوم لا يجرمنكم شقاقي أن يُصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد قالوا يا شعيب ما نفقه كثيراً ممّا تقول وإنّا لنراك فينا ضعيفًا)، وقد كان ضعف بصره، (ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز - إلى قوله - إنيّ معكم رقيب)، أي انتظروا، فبعث الله عليهم صيحة فماتوا، وهو قوله: (فلما جاء أمرنا نجينا شعيبًا والذين آمنوا معه برحمة منّا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها ألا بُعدًا لمدين كما بعدت ثمود[هود:94])»[1].

رابعًا: الارتباط بين العقيدة والعمل الاجتماعيّ وآثاره في تعاليم النبي شعيب (ع)

من خلال مجمل الآيات الواردة التي أشرنا إليها من قبل، ظهر واضحًا، كيف ربط وجمع نبي الله شعيب(ع) بين العقيدة الحقّة التي يحملها الإنسان، وينجذب إليها بفطرته السليمة ويهتدي إليها بالبرهان والحجّة، وبين السلوك القويم الذي ينبغي أن يصدر عنه بما ينسجم مع تلك العقيدة، وخصوصًا ما يتعلق بالعدل، فالمناسب للعقيدة الحقّة التي يحملها الإنسان المُوحِّد، هو تحرّي الإنسان في سلوكه وأفعاله العدالة، ووضع الأمور مواضعها الصحيحة والحقة، وتجنّب الفساد والإفساد والطغيان والظلم الاجتماعي... وكلّ ما لا ينسجم مع عقيدة التوحيد والعبوديّة لله تعالى، والتي تقتضي المساواة بين الناس في الانتفاع من الثروات والموارد الطبيعية التي سخّرها الله تعالى للإنسان، وعدم احتكارها من طرف شخص أو جماعة وحرمان البقية منها، أو التلاعب بها بالبخس في الموازين وتعمّد النّقص في المكاييل: ﴿**وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ**

1- القمي، تفسير القمي، ج1، ص337.

أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾[الأعراف: 85-86]، ﴿**وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ * وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ**﴾[هود: 84-86].

لقد توجّه النبي شعيب(ع) إلى قومه بأسلوب الأخ الشفيق الحريص عليهم: (وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ)، وبنى(ع) دعوته أولا على أساس عقيدة التوحيد، - كما فعل من قبله جميع الرسل الإلهيّين (عليهم السلام)- بوصفها أصل الدين وأسّه، ولأنّ الدعوة إلى التوحيد تستلزم البُعد الكامل ورفض الإذعان أو الطاعة لجميع الطواغيت، أو اتّباع الأهواء الجاهلية، التي تحول دون تحقق أيّ إصلاح اجتماعي أو أخلاقي، ثم دعاهم – ثانيّا - إلى سلوك عملي – اجتماعي، ينسجم مع عقيدة التوحيد والعبوديّة لله تعالى، حيث دعاهم إلى إيفاء الكيل والميزان: (فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ)، ثمّ نهاهم عن الإفساد في المعاملات التجارية في البيع والشراء خصوصًا: (وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ)، حيث كان الخلل والإفساد في المعاملات رائجًا وشائعًا فيما بينهم، وممّا لاشك فيه « أنّ تسرّب أيّ نوع من أنواع الخيانة والغشّ في معاملات البيع والشراء يُزعزع بل يُهدم أسس الطمأنينة والثقة العامّة، والتي هي أهمّ دعامة لاقتصاد الشعوب، وتُلحق بالمجتمع خسائر غير قابلة للجبران. ولهذا السبب كان أحد الموضوعات الهامّة التي ركّز عليها شعيب(ع) هو هذا الموضوع بالذات»[1]. ثمّ نهاهم عن الإفساد في الأرض، وضرورة تحرّي الإصلاح في السلوك والفعل، لأنّه ممّا تهتف به الفطرة الإنسانية وتدعو إليه، وإليه يهدي العقل ويحكم به، لما فيه من انتظام الحياة وسعادتها: (**وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا**)، وبخس الموازين والتطفيف هو -بالتأكيد- من مصاديق الإفساد في الأرض.

«ومن المسلم أنّه لا يستفيد أحد من إيجاد الفساد ومن الإفساد، سواء كان فسادًا أخلاقيًّا، أو من قبيل فقدان الإيمان، أو عدم وجود الأمن الاجتماعي، لهذا أضاف في آخر الآية قائلاً: (ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين)، وكأنّ إضافة عبارة: (إنْ كنتم مؤمنين)، إشارة إلى أنّ هذه التعاليم الاجتماعية

1- الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج5، ص112.

والأخلاقية، إنّما تكون متجذّرة ومثمرة إذا كانت نابعة من الإيمان ومستمدّة من نوره. أمّا لو كانت قائمة على أساس سلسلة من ملاحظة المصالح المادّية، لم يكن لها بقاء ودوام»[1].

لذلك، نجده يُعلّل ما تقدّم من تعاليم بأنّها خير للإنسان واجتماعه البشريّ، فلا استقامة للحياة الإنسانيّة إلا بسيادة العدالة الاجتماعيّة فيها، وهو ما تُؤكده التعاليم الحاثّة على الإيفاء بالكيل والوزن، وعدم بخس الناس حقوقهم، أو هضمها، وعدم الفساد في الأرض، وهذا ما يكشف الارتباط الوثيق بين الأمن الاقتصادي والأمن الاجتماعي والنفسي في أي مجتمع.

إنّ الحياة الاجتماعيّة « في استقامتها، مبنية على المبادلة بين الأفراد، بإعطاء كلّ منهم ما يفضل من حاجته، وأخذ ما يعادله ممّا يُتمّم به نقصه في ضروريات الحياة وما يتبعها. وهذا يحتاج إلى أمن عامّ في المعاملات، تُحفظ به أوصاف الأشياء ومقاديرها على ما هي عليه، فمن يجوِّز لنفسه البخس في أشياء الناس، فهو يجوِّز ذلك لكلّ من هو مثله، وهو شيوعه، وإذا شاع البخس والغشّ والغرر من غير أن يؤمن حلول السم محلّ الشفاء، والردي مكان الجيّد، والخليط مكان الخالص، وبالآخرة كلّ شيء محلّ كلّ شيء بأنواع الحيل والعلاجات، كان فيه هلاك الأموال والنفوس جميعًا. وأمّا كون الكفّ عن إفساد الأرض خيراً لهم، فلأنّ سلب الأمن العامّ يُوقف رحى المجتمع الإنساني عن حركتها من جميع الجهات، وفي ذلك هلاك الحرث والنسل وفناء الإنسانيّة»[2].

وفي سورة هود يعمد النبي شعيب(ع) إلى ترغيب قومه وترهيبهم، بترك هذه الأعمال المخلّة بالنظام الاجتماعيّ والمهلكة للإنسان، فيرغّبهم أولاً بقوله: (إنيّ أراكم بخير)، فـ» قبول نُصحي يكون سببًا لتفتّح أبواب الخير عليكم، وتقدّم التجارة واستقرار المجتمع. ويحتمل أيضًا في تفسير هذه الجملة: (إنيّ أراكم بخير) أنّ شعيبًا(ع) يقول لهم: إنيّ أراكم منعّمين وفي خير كثير، فعلى هذا لا مدعاة للكفر وعبادة الأصنام وإضاعة حقوق الناس، بدلاً من شكر الله على نِعم هذه، وثانيًا: (وإنيّ أخاف عليكم عذاب يوم محيط)، بسبب إصراركم على الشرك والتطفيف في الوزن وكفران النعمة (...) وهذا التعبير فيه إشارة إلى عذاب الآخرة، كما يُشير إلى عقاب الدنيا الشامل. فعلى هذا لا أنتم بحاجة إلى مثل هذه الأعمال، ولا ربّكم غافل عنكم، فينبغي إصلاح أنفسكم عاجلاً»[3].

1- الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج5، ص12.
2- محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج8، ص186-187.
3- الشيرازي، الأمثل في تفسير القرآن، ج7، ص33-34.

وبعد أن نهاهم النبي شعيب(ع) عن ما يُخرّب نظامهم الاقتصادي، من التطفيف في الوزن والبخس في المكيال، دعاهم إلى الوفاء بالحقوق وتحرّي القسط والعدل، ووضع الأمور مواضعها وإنشاد الإصلاح في الأرض: (وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ)[هود: 85]، ثمّ كشف لهم، أنّ زيادة الثروة عن طريق الظلم والجور لن تكون سببا في غناهم، بل ما ينفعهم ويُغنيهم هو بقية الله: ﴿**بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ**﴾[هود:86]. و» التعبير بـ (بقية الله): قد يقصد به، إمّا أنّ الرّبح الحلال القليل المتبقي عن أمر الله، فهو بقية الله، وإمّا لأنّ الحصول على الرزق الحلال، باعث على دوام نعم الله وبقاء البركات، وقد يُشير إلى الجزاء والثواب المعنوي الذي يبقى إلى الأبد، فإنّ الدنيا فانية، وما فيها لا محالة فان. وهذا ما تُشير إليه [الآية (46) من سورة الكهف]: (والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابًا وخير أملاً). والتعبير بقوله: (إن كنتم مؤمنين) إشارة إلى أنّ هذه الواقعية لا يعرفها إلا المؤمنون بالله وحكمته وفلسفة أوامره»[1].

خامسًا: مواجهة النبي شعيب (ع) للطبقة الاقتصاديّة الطاغية من قومه

بناء على ما تقدّم، من كون الفساد الاقتصادي مانع من تحقيق العدالة الاجتماعيّة والأمن الاجتماعي والنفسي، نجد أنّ النبي شعيب(ع) قد اعتمد -كما تقدّم- أسلوب المواجهة الواعية والحكيمة مع ما سمّاهم القرآن الكريم « الملأ «، وهم أكابر القوم الذين يتسلّطون على الأغلبية في المجتمع، ويحتكرون موارد عيشهم، فهؤلاء كانوا يستشعرون الخطر والتهديد الوجودي على كيانهم وسلطانهم، بما يحمله الأنبياء(ع) من تعاليم، تدعو إلى المساواة بين الناس وتحقيق العدالة الاجتماعيّة. لذا اتّبع النبي شعيب (ع) استراتيجيّة هادفة لتحقيق العدالة الاجتماعيّة، تقوم على أساس بناء العمل الاجتماعيّ على أساس العقيدة الحقّة، عقيدة التوحيد، ومن ثمّ المواجهة الحكيمة والواعية للفئة الاجتماعيّة المسؤولة عن اختلال الأمن الاجتماعي والمانعة من تحقيق العدالة في المجتمع والحائلة بين الناس وإيمانهم بنبي الله شعيب(ع): ﴿**وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا**﴾[الأعراف:86]، «فإنّ في هذا الكلام تلميحًا إلى أنّهم كانوا يقعدون على طريق المؤمنين بشعيب (عليه السلام)، يتوعّدونهم

1- الشيرازي، الأمثل في تفسير القرآن، ج7، ص35-36.

ويُضايقونهم، لِمنْعهم من الحضور عنده أو الاستماع له، وإقامة العبادات الدينية معه، ويصرفونهم عن التديّن بدين الحقّ وسلوك طريق التوحيد، وهم يسلكون طريق الشرك، ويطلبون سبيل الله الذي هو دين الفطرة عوجًا. وبالجملة: كانوا يقطعون الطريق على الإيمان بكلّ ما يستطيعون من قوّة واحتيال، فنهاهم عن ذلك»[1].

ولذلك، وصّاهم بذِكْر نِعَم الله عليهم، ومنها أنّهم كانوا قلّة قليلة فكثّرهم، وفي كثرتهم دافع للاجتماع العادل، حتّى يستقيم أمر اجتماعهم ويزداد قوّة بتحقيق العدالة فيه، ومن ثمّ دعاهم إلى الاعتبار من أحوال الأمم السالفة وعاقبة المفسدين منهم: ﴿**وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ**﴾[الأعراف: 86]، فالآية «أمر بتذكّر تدرُّجهم من القلّة إلى الكثرة، بازدياد النسل، فإنّ ذلك من نِعَم الله العظيمة على هذا النوع الإنساني، لأنّ الإنسان لا يقدر على العيش وحده من غير اجتماع، إذ الغاية الشريفة والسعادة العالية الإنسانيّة التي يمتاز بها عن سائر الأنواع الحيوانية وغيرها، اقتضت أن تهب العناية الإلهية له وسائل وقوى مختلفة وتركيبًا وجوديًّا خاصًّا، لا يستطيع أن يقوم بضروريات حوائجها العجيبة المتفنّنة وحده، بل بالتعاضد مع غيره، في تحصيل المأكل والمشرب والملبس والمسكن والمنكح وغيرها، تعاضدًا في الفكر والإرادة والعمل. ومن المعلوم، أنّه كلّما ازداد عدد المجتمعين، ازدادت القوّة المركّبة الاجتماعية، واشتدّت في فكرتها وإرادتها وعملها، فأحسّت وشعرت بدقائق الحوائج، وتنبّهت للطائف من الحيل، لتسخير القوى الطبيعية في رفع نواقصها. فمن المنن الإلهية أنّ النّسل الإنساني آخذ دائمًا في الزيادة، متدرّج من القلّة إلى الكثرة، وذلك من الأركان، في سير النوع من النقص إلى الكمال»[2].

كما دعاهم نبي الله شعيب(ع) إلى التحلّي بالصبر الاجتماعي، بوصفه ضمانة للأمن الاجتماعي وعدم اختلال نظامه، حتى عند اختلاف أفراده على مستوى العقيدة والفكر والرأي، وانتظار حكم الله فيهم: ﴿**وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ**﴾[الأعراف: 87]، حيث «أمرهم جميعًا بالصبر وانتظار أمر الله فيهم ليحكم بينهم، وهو خير الحاكمين، فإنّ في ذلك صلاح المجتمع، أمّا المؤمنون فلا يقعون في اليأس من الحياة الآمنة والاضطراب والحيرة من جهة دينهم، وأمّا الكفّار فلا يقعون في ندامة

1- محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج8، ص188.
2- محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج8، ص189.

الإقدام من غير رويّة ومفسدة المظلمة على جهالة، فحكم الله خير فاصل بين الطائفتين، فهو خير الحاكمين، لا يساهل في حُكم إذا حان حينه، ولا يجور في حكم إذا ما حكم»[1].

ولمّا قابله الملأ من قومه برفض وصاياه، مع كونها حقّة وحافظة لاجتماعهم ومانعة من اختلال نظامه، وخيّروه بين البقاء معهم في ملّتهم الباطلة أو الرحيل عنهم: ﴿**قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا**﴾[الأعراف:88]، أجابهم النبي شعيب(ع): بأنّه لا يُريد من دعوته إلا ما يُصلح أمرهم في دينهم ودنياهم: ﴿**وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ**﴾[هود: 88]، ثمّ ترقّى في مواجهتهم بالثبات على الملّة الحقّة والاستفتاح بالله تعالى عليهم: ﴿**قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ * قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ**﴾[الأعراف: 88-89]، ﴿**وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ**﴾[هود: 93].

وهكذا انتهت قصة نبي الله شعيب(ع) ومن آمن معه، مع قومه، حيث حلّت سُنّة الاستئصال بالقوم الذين أفسدوا في الأرض، وعرّضوا مسيرة الاستخلاف الإلهي للإنسان، لخطر التهديد الوجودي، ونزل بهم العذاب الذي يستحقونه: ﴿**وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ * كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ**﴾[هود: 94-95].

خاتمة

لقد كانت الدعوة إلى العدالة الاجتماعيّة، محطّ اهتمام الأنبياء والمرسلين(ع)، في مجتمعاتهم ومع أقوامهم، حيث بذلوا الجهد الكبير وتحمّلوا الصّعاب الكثيرة، وواجهوا الإنكار والتنكيل والقتل والتهجير، في سبيل تبليغ الدعوة الإلهيّة الحقّة، وإرساء دعائم الدين، وتحقيق العدالة على جميع المستويات، بوصفها ضمانة لتكامل الإنسان الفرد والمجتمع، وصيانة للمجتمعات من التنازع

1- محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج8، ص190.

والانحلال والفساد والهلاك. ولذلك نجدهم قد عملوا على توعية مجتمعاتهم وتبصيرهم بالسُّنن والتعاليم الإلهيّة الحاكمة والمؤثّرة في حركة المجتمع عبر التاريخ والواقع، وهو ما نجده في دعوة نبي الله شعيب(ع) لقومه، وسعيه في سبيل إصلاحهم وصلاح اجتماعهم ودنياهم وآخرتهم، ومن أهم ما يُمكن استفادته من سُنن ودروس وعبر، كما ظهرت في دعوة نبي الله شعيب(ع) وعلاقته مع قومه، التالي:

الإفساد في الأرض خلاف السنّة الإلهيّة، التي هي الإصلاح.

العلاقة الوثيقة بين العقيدة الصحيحة(التوحيد)، والإيمان بالآخرة والبعث، وبين العمل الصالح، ومن أهم الأعمال الصالحة، نشر العدالة في المجتمع، والالتزام بحقوق الناس، وعدم بخسهم أشياءهم في المعاملات التجارية أو التطفيف في الكيل والميزان.

الارتباط الوثيق والتأثير المتبادل، بين العدالة الاقتصادية من جهة، و العدالة والأمن الاجتماعي والنفسي والروحي من جهة ثانية.

تذكّر المواهب الإلهيّة، والشّكر على النِّعم، والحفاظ عليها، يقتضي الرجوع إلى الله تعالى ولزوم طاعته.

الاستغفار والثوبة، سبيل الرجوع إلى الله تعالى وشمول رحمته.

معاندة الحقّ وجحده، تسلب الإنسان فرصة الهداية والرجوع إلى جادة الصواب.

التقليد الأعمى، آفة خطيرة تُعطل العقل، وتمنعه من التفكّر والتأمل والتدبر والاعتبار، وتُفقد الإنسان المعيار الذي يُميز به بين الحق والباطل، وبين الخطأ والصواب، فيصير جاهلاً سفيهاً.

أيّ مجتمع أو فئة، تسترسل في مُعاندة الحقّ، وتُصرّ على الانحراف والظلم وانتهاك الحقوق، وتعيش بخلاف السُّنن الإلهية، فمصيرها العذاب والهلاك في الدنيا، والخزي والخسران في الآخرة.

مِنَ العقل والحكمة، أخذ العبرة من تاريخ الأمم الغابرة، والتفكر في أحوالهم ومصيرهم وما حلّ بهم، وخصوصًا العواقب الوخيمة للكفر والظلم. وهذا من أهم مقاصد قصص الأنبياء في القرآن الكريم، يقول عز وجل: ﴿**لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ**﴾[يوسف: 111].

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.
- اسماعيل ابن كثير، قصص الأنبياء، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، دار التأليف، دار الكتب الحديثة، مصر/القاهرة، ط1، عام 1968م.
- الراغب حسين الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، الناشر: مطبعة سليمانزاده، طليعة النور، إيران/قم، ط2، عام 1427هـ.ق.
- عبد الحسين الشبستري، أعلام القرآن، مركز انتشارات دفتر تبليغات، إيران/قم، ط1، 1379هـ.
- علي القمي، تفسير القمي، تصحيح وتعليق وتقديم: طيب الموسوي الجزائري، مؤسّسة دار الكتاب، إيران/قم، ط3، عام 1404هـ. ق.
- قطب الدين الرواندي، قصص الأنبياء، تحقيق: غلام رضا عرفانيان اليزدي الخراساني، مؤسّسة الهادي، إيران/قم، ط1، عام 1418هـ.ق.
- محمد العياشي، تفسير العياشي، تحقيق وتصحيح وتعليق: هاشم الرسولي المحلاتي، المكتبة العلميّة الإسلاميّة، إيران/طهران، لا ط، لا ت.
- محمد بن النعمان (الشيخ المفيد)، الاختصاص، تحقيق: علي أكبر الغفاري، محمود الزرندي، دار المفيد، لبنان/بيروت، ط2، عام 1993م.
- محمد بن علي ابن بابويه (الصدوق)، الخصال، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، لا ط، الناشر: مؤسّسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرّسين، إيران/قم، لا ط، عام 1403هـ.
- محمد بن يعقوب الكليني، الكافي، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، دار الكتب الإسلاميّة، مطبعة حيدري، إيران/طهران، ط5، عام 1363هـ. ش.
- محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، مؤسّسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرّسين، إيران/قم، لاط، لا ت.
- محمود الآلوسي، تفسير روح المعاني، تحقيق: عبد الباري عطيّة، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلميّة، لبنان/بيروت، ط1، عام 1415هـ.
- ناصر مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، دار الأميرة، لبنان/بيروت، ط1، عام 2005م.